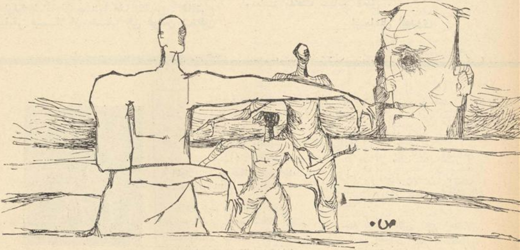
ميرلوبونتي وفلسفة الإدراك الحسي



- ليس ثمة وجود بدون الآخرين ، فان **الانسان لا يكف** مطلقا عن الخروج عن ذاته ، والاتصال بالعالم والآخرين ، ومثل هـــذا الاتصال يجعل من علاقته بالعـالم والناس مناسبة للشعور بالاهتمام .

- انني لا أستطيع ان أفكر بذاتي بوصفي جزءا من العالم ، وانما كل ما أعرفه عن العالم ، انما أعرفه من نظرة خاصة بي ، أو من تجربة عن العالم بدونها لا تستطيع رموز العلم أن تعني شيئا .

- الوجود الفردي الانساني ليس وجـــودا مستقلا بنفســه ، وانما هو وجود مع **الغير** أو الآخر ، وبواسطة الاتصال معه والحوار ينبني الكون ، وبدون هذا الاتصال يصبح الوجود بلا معنى .

محمد كمال الدين

تقوم **الفلسفة الوجودية** على عدة مبادىء رئيسية يؤمن بها فلاسفتها ، وهي تتخذ الانسان الفرد نقطـة ارتكاز ومحورا رئيسيا لمعظم هذه المبادىء ، فهي بذلك تعد ثورة على كثير من الفلسفات التي سبقتها ، فلا تبحث في الماهية والوجود والطبيعة بالمعنى الفلسفي التقليدي عند **افلاطون وارسطو** وما تبعهما ، ولا تنحاز لمذهب عقلي أو حسي أو ميتافيزيقي معين ، بل تعد فلسفة جديدة قائمة بذاتها وغير مسبقة ، ويمكن القول مع ذلك أنها امتداد طبيعي للتفكير الفلسفي حين يصل الى درجـة التشبع ، وحين يصل بمذاهبه الى درجة لو استمر عليها لظل في دائرة مفرغة من أفكار لا يمكن أن يصبر عليها الانسان في تقدمه وتطوره الشامل .

سقوط المطلق والمذهبية

وصل **ديكارت** مثلا (١٥٩٦ – ١٦٥٠) في ذروة فلسفته الى أن تفكير الانسان هو الدليل الواضح على وجوده ، فلولا الفكر ولولا التأمل لما ادرك هذه الحقيقة .

ووصل **باركلي** (١٦٨٥ – ١٧٥٣) الى فلسفة عقلية مثالية يثبت فيها أن العالم المادي ليس له وجود مستقل عن العقل الذي يدركه ، وان العقل وحده هو **الحقيقة** ، أما **كانت** (١٧٢٤ – ١٨٠٤) فقد وصل الى أن للمعرفة الانسانية أساسين لا غنى لأحدهما عن الآخر ، وهما الحس والفكر وبهما نكتسب الادراكات الحسية والعقلية ، وبغير هذين الأساسين فلا ادراك ولا وجود .

هذه النماذج من التفكير الفلسفي السابق على ظهور الوجودية تدل على أن الفلسفة ظلت تجري وراء المطلق والمذهبية بمعناها الضيق الى مدى طويل ، فلما أن جاء **هيجل** (١٧٧٠ – ١٨٣١) أراد تبسيط الأمور بعض الشيء ، فنادى بفلسفة انسانية .. ولكن أي انسان يدعو اليه ؟ انه الانسان المطلق ، والكائن الأبدي ، وان الكون كله هو مرآته ، ورد هذا الانسان المطلق – مع كل هذا – الى صورة العقل الالهي في أرفع مظاهر الوجود ، وما معنى هذا ؟ : أن تظل الفلسفة في دائرتها المفرغة ، لا تعنى بالانسان الا كعنصر من عناصر الوجود ، يخضع لتقلباته ، ويفعل ما يملى عليه من القوى الخارجية ، اما هو .. الانسان ، فلم يجد الا النزر اليســير من الاهتمام ، حتى كانت فلسفة الظواهر في منتصف القرن التاسع عشر » .

اتخذت فلسفة الظواهر من **الاحســاس الانساني** بالوجود نقطة بداية لها ، هذا الاحساس الانساني أو الذات المدركة الشاعرة تسبق كل ما عداها من ظواهر الحس والعالم الخارجي وتقصر وجودها على الشعور أو التجربة الحية ، ويعنيها ما يتبدى للحس في داخلهـا كصدى للعالم الخارجي ، ومعنى هذا أن فلسفة الظواهر تقصد الانسان كبداية للتفكير وسبب له ، وتعنى باحساسه بذاته ثم بالعالم الخارجي وقد انطبع به ، وقد وصلت هذه الفلسفة ذروتها عند **ادموند هوسرل** (١٨٥٩ –

١٩٣٨) حين وصفها بأنها دراسة وصفية لطبيعة الشعور عندما يقف الانسان فى مواجهة ادراكه للعالم الخارجى ، وانها فلسفة تعنى بالذات المدركة واحالة ما تدركه من الموضوع او الشىء المدرك الى صورة مفهومة واضحة ، فهناك احالة مستمرة بين الذات وبين الشىء موضوع الادراك ، وبعدها لا يصح القول بأن انسانا يفكر أو يشعر أو يتأمل ، وانما يقال انه يفكر فى شىء أو يشعر بشىء أو يتأمل شيئا ، وما عبارة ديكارت « أنا أفكر .. » فتصبح « أنا أفكر فى شىء » بالمعنى الظاهراتى ..

الوجودية وفلسفة الظواهر

تأثرت الفلسفات الوجودية بفلسفة الظواهر ، بل واعتبرها الفيلسوف الفرنسى المعاصر موريس ميرلوبونتى Maurice Merleau Ponty (١٩٠٨ – ١٩٦١) **علما يقوم على وصف التجربة الحية ، وكشف العالم ورؤيته رؤية حقيقية ومهمته ازاحة الستار عن سره وسر العقل ، حتى يتسنى للانسان أن يعيش عالمه الذى يحسه ويدركه ،** وتراه يصدر كتابه الرئيسى **«علم ظاهرات الادراك الحسى»** بدراسة قيمة لهذه الفلسفة ، يحلل فيها ظاهرات الوجود الانسانى ، باعتبارها تقوم على تجربة الحس المشترك السليم ، وباعتبار أن العالم المعاش هو عالم الظاهرات أو عالم البشر وهو الخليفة التى يعكسها الادراك الحسى ، وقد تأثر ميرلوبونتى أيضا بالفلسفة الوجودية عند **مارتن هيدجر** (١٨٨٩ – ...) والتى تقوم على ربط الانسان بالوجود باعتباره الموجود الوحيد الذى لا ينفصل وجوده عن التساؤل وللاستفسار ، وهو الكائن الوحيد الذى تنحصر ماهيته فى وجوده ، كما تقوم على أن الذات الفردية الانسانية هى مصدر كل الموجودات والوسيلة التى نكتشفها بها ، **وليس هناك وجود خارجى أو بشرى ان لم تكن الذات مرتبطة بالعالم ارتباطا أوليا قبليا ، وليس ثمة وجود بدون الآخرين ، وأن الانسان لا يكف مطلقا عن الخروج عن ذاته والاتصال بالعالم والآخرين ، ومثل هذا الاتصال يجعل من علاقته بالعالم والناس مناسبة للشعور بالاهتمام .**

م . ميرلوبونتى



كذلك تأثر ميرلوبونتى بفلسفة **جان بول سارتر** (١٩٠٥ – ...) التى أصبحت العلامة المميزة للوجودية الملحدة ، وهو يعد من تلاميذه المخلصين المؤيدين لأغلب أفكاره ، فهو يقول معه بأسبقية الوجود الانسانى على ماهيته ، وان الانسان بعد أن يلقى به فى الوجود عليه ان يختار ماهيته بنفسه بحيث يصبح مسئولا عن هذا الاختيار وذلك الوجود ، وانه فى ذلك حر ولا يسأل عن شىء الا اذا تعدت حريته نطاق ذاته فاعتدت على حرية غيره ، وانه فى حريته انما يصنع مصيره ومستقبله ، وعليه أن يلتزم بها ، ويعمل على هديها ليصل الى اهدافه فى الوجود ، كما عليه أن يتحمل فى سبيل ذلك ما سوف يعتريه من قلق أو ضجر ، فانه علامة الارادة الحرة والتحفز المترقب .

فيلسوف الادراك الحسى

وبمثل ما كانت عليه فلسفة ميرلوبونتى من جدية واتزان ، كانت حياته أيضا ، فقد نشأ فى باريس (١٩٠٨) وتلقى علومه بها ، وحصل على درجة الدكتوراه فى الفلسفة برسالتين هامتين فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، بلغتا به بعد أن نشرهما الى ذروة فلسفية ذائعة ، وقد ساعده ذلك على شغل منصب الأستاذية فى الفلسفة بالكوليج دى فرانس ، وهو منصب لا يصل اليه الا من بلغ فى الفكر شأوا له وزن وتقدير ، وقد اتبع فى حياته طريقة منهجية أكاديمية معتدلة وأوقف فكره على الأبحاث الجامعية وبما ألقاه من محاضرات ونشره من رسائل ومقالات ، لم يكتب القصة أو المسرحية الفلسفية كما اعتاد معظم الفلاسفة الوجوديين أمثال **سارتر والبيركامى وسيمون دى بوفوار** وغيرهم ، كما أنه لم يغرق نفسه فى لجة المجتمع ومظاهرات الدعاية ، بل توفر على البحث المتأنى والنشر الهادىء المنظم ، ولذلك كانت شهرته كفيلسوف وجودى أقل من غيره ، ولم تتعد مؤلفاته كلها الثمانية ، فضلا عن بعض أبحاث قصيرة ومقالات متناثرة قليلة ، وهو نتاج فكرى ضئيل من حيث الكم ، أما من حيث الكيف فقد تضمن اصالة ومنهجية لم تتوفر لدى غيره من الفلاسفة .. وظل على طريقته الفكرية تلك حتى وافاه الأجل فى ميتة طبيعية لا جنحة فيها ولا «وجودية» عام ١٩٦١ .. ! .

كانت الرسالة الأولى لميرلوبونتى هى كتابة ((علم **ظواهر الادراك الحسى** Phénoménologie de la Perception ونشره فى باريس عام ١٩٤٥ فى حوالى ٧٠٠ صفحة ، وتضمن المبادىء الرئيسية لفلسفته ، كما جعل من **مشكلة الادراك الحسى نقطة بدء ومحور ارتكاز لها** ، ويقول فى مقدمته « اننى لا أستطيع أن أفكر بذاتى بوصفى **جزءا من العالم ، وانما كل ما أعرفه عن العالم انما أعرفه من نظرة خاصة بى أو من تجربة عن العالم بدونها لا تستطيع رموز العلم أن تعنى شيئا .. »** .

وهذا تأكيد للمبدأ الوجودى العام بأن وجود الانسان فى العالم سابق على كل شىء ، وأن وعيه وادراكه بعد ذلك للأشياء انما ينبع من ذاته واحساسه ، ويكون الاحساس فى هذه الحالة هو الشاشة التى يبدو عليها العالم وبها يدرك الانسان معنى وجوده مرتبطا بهذا العالم ، ونحن نصل الى الاحساس حين نفكر فى مدركاتنا الحسية وحين نريد التعبير عنها ، فالادراك الحسى ـ بهذا المعنى ـ لا يقدم نفسه أولا على أنه حدث واقعى فى العالم نستطيع أن نطبق عليه سببا معقولا ، وانما يقدم نفسه كاعادة لخلق العالم أو اكتشاف لما فيه من ظواهر وأشياء .

بين الفكر والوجود

وهناك ارتباط بين الفكر والوجود ، « فليس العالم هو ما أفكر فيه ، ولكنه ما أعيش » (ص ١٠) أى **أن معنى الوجود لا يصل الى الانسان الا اذا عايشه وعرفه على حقيقته ، وأن التجربة الأولى بالنسبة للانسان هى العودة للعالم المعاش أو عالم التجربة ، وعلى الفلسفة أن تبدأ بوصف مباشر لهذه التجربة كما هى** دون اية مراعاة لعملية تكونها النفسية والتفسيرات السببية التى قد يقدمها عنها العالم أو المؤرخ أو العالم الاجتماعى ، ثم عليهم بعد ذلك ـ أى بعد أن تدركها الحواس ادراكا كاملا ـ أن يعطوها من تفسيراتهم وتأويلاتهم ما يشاءون ، والانسان حين يفسر شيئا أو يؤوله انما يستمد ذلك من ذاته ، من تكوينه ، من خبرته وثقافته ، فكل انسان انما يتجدد موقفه من الشىء موضوع الادراك بحسب رأيه واعتقاده الشخصى ، وليس معنى ذلك أن الانسان منفرد بالحكم وانه مقياس نفسه كما تقول السفسطائية بل هو مشارك لغيره فى الوجود ، وعلى هذا الأساس تكون هناك أحكام عامة تستقر فى وعى الجميع واحساسهم ولا يمكنهم أن ينقضوها أو يخرجوا عليها ، **فالتجربة الانسانية هى خليط من ((الأنا)) ومن ((العالم)) وهذا ما يسميه بونتى ((بالوجود فى العالم)) ، وهذا معناه أن الداخل ـ ((أى الانسان)) ـ ، والخارج ـ ((أى العالم)) ـ لا يمكن أن ينفصلا .**

ويقول بونتى : « اذا كنت عند تفكيرى فى جوهر الذاتية أجدها مرتبطة بذاتية الجسم وذاتية العالم ، فذلك لأن وجوده كذاتية لا يشكل الا شيئا واحدا مع وجودى كجسد ومع وجود العالم » (ص ٤٦٧) والعالم لا يمكن فصله عن الذات كما لا يمكن فصل الذات عن العالم ، اذ يظل العالم ذاتيا لأن تركيبه مرسوم بواسطة الذات ، وقد تكون هذه النظرية الذاتية مغرقة فى الفردية بعض الشىء ، ولكننا نجد ميرلوبونتى يستدرك هذا بأن **الوجود الفردى الانسانى ليس وجودا مستقلا بنفسه ، وانما هو وجود مع الغير autrui أو الآخر ، وبواسطة الاتصال معه والحوار ينبنى الكون ، وبدون هذا الاتصال يصبح الوجود بلا معنى ، بل ان وجود الغير هو السبيل الصحيح لتحقيق الذات** ، ولا يصبح الكون محقق الوجود الا اذا تلاقت أو تقاطعت تجاربى مع تجارب الآخرين وبهذا الالتقاء يكون الادراك ، وبالادراك يصبح للانسان وجوده الفردى ، وبالوجود الفردى يكون للانسان انسانيته المميزة ، وفرديته المستقلة .

هذه النظرة للآخر لا نجدها بهذا المعنى المستقيم عند سارتر أو غيره من سائر الوجوديين ، فسارتر ينظر للآخر على أنه يسلبنى ما خلقت ، وهو عند وجوديين آخرين كائن مكمل لى أحس اذا فقدته بشعور مستمر من النقص ، أما عند ميرلوبونتى فهو شريك فى الوجود ، لأن موقفى من الآخر هو الذى استمد منه موقف الآخر منى ، وحضورى أمام نفسى هو الذى يحدد وجودى وهو كذلك يجعل وجود الآخر ممكنا بالنسبة الى ، وليس معنى ذلك أننى ملتزم بموقف هذا الآخر ، وانما يعنينى الا نتنازع الوجود فيما بيننا ، وأن يكون له رأيه ووجوده

كما لى رأبى ووجودى ، ويكون الجدل الحر بيننا سبيلا لأن يكون الوجود محتملا ، وممكنا ، وهذا ما نعبر عنه بلفظ **الحرية فى الوجود** ، فالانسان حر ، وحريته مطلقة من كل قيد ، وليس معنى الاطلاق هو الفوضى أو اللانظام ، بل الاطلاق هنا معناه كل ضغط يجعل الفرد لا يستطيع تنفيذ مخططه فى حدود القيم الاجتماعية السائدة ، وبحيث لا يطغى على حرية الآخرين ، « ان الحرية الانسانية دائما حرية مجاهدة ، والانسان يوجد باستمرار فى موقف اجتماعى معين ، ان استطاع معارضته فان حريته لن تستطيع ان تنقله بطريقة سحرية الى تلك الشخصية الخيالية التى يريدها .. » (ص ٥١٣) ، ذلك لأن حريتنا عبارة من اختيارنا لوجودنا ولأسلوبنا العام فى التصرف بازاء العالم ، وكل اختيار يستند الى التزام سابق ، التزام اختاره الفرد بملء حريته وتبعا لذلك فالحرية لا توجد الا فى مواقف أو ظروف ، وهذه المواقف ليست مجرد حدود فحسب ، وانما هى الشروط التى تعين تلك الحرية على ممارسة نشاطها وتحديد اتجاهها ..

مشكلة الحرية الانسانية

وهكذا نجد الحرية **مطلقة** وغير مطلقة ، مطلقة بالنسبة للانسان حيث يختارها ويحددها بناء على موقف سابق والتزام به ، وغير **مطلقة** لأنها لابد أن تبرز من شيء أو تتجلى ابتداء من شيء آخر ، شيء خارج الذات ، وما الحرية فى الحقيقة سوى تلاقى الداخل والخارج اذ ليس ثمة حرية بدون مجال ، وحرية الانسان تفهم ابتداء من موقفه ، بل ان الحرية هى التى تفسر التاريخ وتخلع عليه معناه ، والانسان هو الذى يصنع التاريخ ، وهو الذى يعطيه معناه ، لأنه هو الذى يتمثله ويحكم عليه ، هذا الحكم سيكون تقريبيا لأنه لا يصل الى معارك التاريخ نفسها ولا الى الأحداث كما وقعت ، وانما سيتمثل مراحل التاريخ كظواهر لوجود واحد أو حوادث مسرحية واحدة لم تصل الى نهاية بعد .



م . هيدجر

ونستدل على ذلك من موقف المؤرخين ، فلم يحدث ان تلاقى تفسيران معا على رأى واحد أو وجهة نظر واحدة ، واذا كان الاتفاق على أسماء الأحداث وتواريخها ، فالتفسيرات والشروح تتعدد من مؤرخ الى آخر ، وهذا يثبت بلا شك أن « ذاتية » الانسان و « مواقفه » ، و « والتزامه » بآراء معينة يؤمن بها ، هى من صميم « وجوده » ، بل انها « الماهية » أو « الصفة » التى تسم هذا الوجود وتلحق به كما يسم المحمول الموضوع فى رأى المناطقة . وخلاصة الرأى فى الحرية عند ميرلوبونتى انها تندمج فى موقف أصلى تتقبله وتتداخل معه ، وانها لا تمارس نشاطها الا ابتداء من ذلك الموقف ، وانها تتحدد باندماجها فى الأشياء ، فالحرية تلاق وانتقال وتبادل بين الخارج والداخل ـ أى بين العالم والذات ـ أو هى حوار متصل اتصالا مستمرا مع الأشياء ومع الآخرين .

وليس الانسان احساسا فقط ، بل هو احساس ونفس ، فاذا كانت النفس تمثل الادراك والعقل فالاحساس الصرف يمثله الجسم ، والانسان نفس وجسم معا ، وميرلوبونتى يدرس الجسم باعتباره موضوعا وشيئا متميزا فى مكان ، وباعتباره جهازا حركيا وموجودا جنسيا، يعتبره الأداة أو الوسيط الذى يتحقق به وجودنا فى العالم، كما يعتبر حركته مرتبطة بالحركة العامة لوجود الانسان فى العالم ويمثل حضوره أمام العالم ، والجسم كائن فى العالم كالقلب فى الجهاز العضوى ، وليس مجرد موضوع قائم بذاته ، بل لا يعرفه به الا بقدر ما يحياه الانسان ويختلط به ويمزج وجوده بوجوده ، وكما يعبر الكلام ان الجسم متصل بالنفس فانه يعى الوجود بالتأمل والادراك والوعى ، هذا الوعى هو منهج الوجود ، وليس ثمة وجود بدون وعى ، وهذا الوعى لا يمكن تحليله بصورة ساذجة دون أن يجرنا الى مسلمات الحس المشترك السليم ، والعالم بأسره يصبح بذلك منطقة من مناطق الوعى ، واختيار مضمونه يقدم لنا جميع أسرار العالم ، وتصبح دلالاته حقيقة الحقائق ، فالوعى بذلك يكون هو العملية التى بها يكون للعالم معناه .

واذا كان الادراك الحسى لدى الانسان يقوده الوعى بحقائق الوجود ، فانه يكون بذلك ادراكا فى مكان ، والمكان عند ميرلوبونتى لا يوجد بدونى ، وهو شيء يدركه الذهن باعتباره نظاما لا يتميز الا لأفعال الترابط بين الأشياء ، وليس المكان بذلك امرا حسيا تدركه الحواس بل هو حيث **الأشياء كلها لها نفس الأهمية** ، مكان تعنى به الرياضيات وعلم الطبيعة أيضا . واذا كان المكان غير محدد بحيث معين ، فكذلك الزمان ، وكلاهما يدركه الذهن ، والزمان عند بونتى هو بمثابة الأسلوب المميز للانسان الذى لابد من أن يجد نفسه باستمرار ، ذلك

لانه يعدو دائما خلف ذاته محاولا اللحاق بها فلا يكاد يقوى على الامساك بزمامها ، وهذا ما يسمى احيانا باسم التعالى أو المفارقة ، بمعنى أن الانسان مفارق دائما لذاته او أنه فى تعال مستمر على نفسه هذا التعالى يهدف الى أن يحقق الانسان وجود هذه الذات بطريقة لا تقبل الوجود على حالة واحدة بل تريد باستمرار أن تتقدم وتتخطى كافة العقبات لتصل الى أسمى مراتب الوجود، فالمفارقة هنا ليست مرضا أو انفصاما بل هى نظرة مستلهمة تدرك أن الثبات معناه الموت ، وأن الحركة هى صميم الوجود . واذا كان الذهن هو الذى يدرك المكان والزمان ، فليس ثمة زمان ولا مكان فى الأشياء ، بل فى النفس الواعية المدركة .

تكوين السلوك

لم يقصر ميرلوبونتى شرح فلسفته ومبادئه فى الادراك الحسى على كتاب « **ظاهرية الادراك الحسى** » ، بل ضمنها سائر كتبه ، وخاصة رسالته الثانية التى نال بها شهادة الدكتوراه وهو كتاب « **تكوين السلوك** » Structure du Comportement صدر عام ١٩٤٩) ، وتعرض فيه لرأى السلوكيين — فى علم النفس — للادراك الحسى ، فهم يقولون بأن سلوك الانسان **نوعان** : فطرى نوعى يولد مع الناس جميعا ، ومكتسب متعلم يدركه المرء باختلاطه بالناس وتعلمه اياه ، وان الانسان يسير فى معرفته للكون من التعميم الى التخصيص ، ومن الانتشار الى التركيز ، ومن الابهام الى الوضوح ، ومن التفكك الى التكامل ، فهو عندهم — وكما يرى ميرلوبونتى — يعى الكون بالتدريج ولا يدركه الا بعد أن يتمثل كل أجزائه ويتعرف عليها . ويعارض بونتى هذا الرأى ، فالانسان لا يبدأ بالابهام او التفكك بل يهديه وعيه مباشرة الى قلب الموضوع ، وهو بما لديه من مخطط سابق ملتزم به لا يرتد نشاطه الى ردود فعل لا واعية ، فان هناك تركيبا معينا فى الانسان هما النفس والجسم معا — ينتظم هذه الردود ، تركيبا يدرك من طريقه حقائق الوجود ودلالاته وهذا التركيب لا يتبع العالم الخارجى ولا الحياة الباطنية ، بل هو مجموعة معنوية ذات دلالات ، والتركيب ليس شيئا فى ذاته ماديا او معنويا بل هو طبيعة الظاهرة الانسانية ، وعلينا أن نرى فيه وسيلة من وسائل الادراك .



أ . هوسرل

وبنفس هذه المعارضة يقف ميرلوبونتى ضد رأى مدرسة الجشطالت — ومعناها الصيغ الاجمالية — التى تصف الادراك بانه عملية عقلية تتم بها معرفتنا للعالم الخارجى ، وبه ندرك الشىء ككل واجمال معا ، ثم يحلل الى اجزائه بعد ذلك ، فعملية الادراك الحسى لا تحتمل هذه العملية ، لأن الادراك هو المعنى الذى يضعه الذهن للمعطى القبلى aprioni الذى يسبق رد الفعل الواعى والخالى من المعنى ، وهو الفعل الذى ندرك بمقتضاه الموضوع ادراكا مباشرا دون أدنى وساطة ، بل دون أدنى حاجة الى تفسير .

وأفرد ميرلوبونتى بعد ذلك كتابه « **المعنى واللامعنى** » Sens et non-Sens — وصدر فى باريس عام ١٩٤٨ — للحديث عن « **الكلمة** » وتأثيرها ، باعتبار أن المعنى الذى تحمله هو المحمول أو المضمون الذى يقصد اليه المرء ، وليست الكلمة فقط هى التى لها « معنى » بل لكل شىء معناه ، وليس علينا سوى أن نتوصل الى وصف تلك المعانى أو الماهيات ، وليس معنى ذلك أننا نفصل بين الكلمة ومعناها أو الشىء وماهيته أو بالأحرى بين الذات والعالم ، فاذا أردنا أن نفهم الادراك الحسى على حقيقته، فلا بد لنا من أن نتخطى تلك التفرقة ، وبمثل هذا المفهوم لا يجب أن نفصل بين المادة والصورة الآن المادة — أو الشىء — لابد لها من صورة بدائية يحتفظ بها الذهن ، كما لابد لها من تاريخ تسير بحسبه فى سلسلة من التطور .

ويهتم ميرلوبونتى فى هذا الكتاب أيضا بدراسة اللغة والفاظها من حيث أن لكل لفظ معناه ، وأن الفكر لابد أن يتجسم فى عبارات وان اللغة فى صميمها خروج عن الذات واتجاه نحو الآخرين أو حضور الفكر نفسه فى العالم المحسوس ، ومعنى هذا أن اللغة هى الوضع الذى تتخذه الذات الناطقة فى عالم المعانى .

انسانية وارهاب

اما كتاب ميرلوبونتى الرابع فهو « **انسانية وارهاب** » Humanisme et Terreur — فقد صدر عام ١٩٤٧ ، وكان قد نشر فى مقالات متتابعة عام ١٩٤٦ فى مجلة الأزمنة الحديثة التى يراس سارتر تحريرها ، **وفيه يبحث علاقة التفكير الوجودى بالماركسية** مع دراسة مقارنة بينهما ، وهو يرى أن الماركسية لم تتخل عن التفكير الليبرالى التحررى ، باعتبارها تهدف الى خلق علاقات انسانية بين الناس ، وتتلاقى الفلسفة الوجودية مع الماركسية فى أن المعرفة تجد نفسها منقولة الى مجموع

التجارب البشرية وكأنها خاضعة لها خضوعا تاما ، والذات لم تعد شيئا فكريا صرفا بل هى ذات انسانية تخضع لديالكتيكية مستمرة ، فتفكر وفقا لوضعها وموقفها ، وتستخرج قيمها الفكرية بملامسة هذه التجربة ، ويرى كذلك أن الماركسية هى السرد المجرد للظروف والشروط التى بدونها لن يكون ثمة انسانية بمعنى العلاقة المتبادلة بين الناس ، **وربما كان هذا التفسير داعيا لانضمامه الى** الحزب الشيوعى الفرنسى ودعوته النضالية للحيلولة بين وقوع حرب عالمية جـديدة بين المعسكرين الاشتراكى والراسمالى ، ووقوفه باستمرار مع كفاح الطبقة العاملة ، **ورؤيته أن العمل الثورى لا يسـتهدف الأفكار والقيم بقدر ما يستهدف فوز هذه الطبقة** . ثم يدعو فى نهاية الكتاب الى أن تثبت الماركسية عند مبادئها الأصيلة لتحقق انتصاراتها التاريخية ، وان مما يعوق تقدمها فى الوقت الراهن هو استعانتها بأساليب التاريخ التقليدية بمعنى أنها تنحو الى استخدام أساليب الخضوع واللامساواة والانتهازية ، ولذا فهى تفقد الثقة فى شجاعتها وتتخلى عن وسائلها العمالية الخاصة .

وعند تولى ميرلوبونتى منصب الأستاذية فى الكوليج دى فرانس ألقى خطابا استهل به حياته الجامعية ، ونشره فيما بعد فى كتابه **« تقريظ الفلسفة »** cloge. de la Philosophie ـ عام ١٩٥٣ ، وفى هذا الخطاب شرح دور الفيلسوف وأهداف الفلسفة كما يراها فى العصر الحديث ، وفى رأيه أن تكون الفلسفة بحثا حقيقيـا لا سرابا واهيا ، فلا تعود تبحث فى المجهول واثبات وجود الله والروح وما الى ذلك من قضايا عفى عليها الزمن ، وانما الفلسفة فى معناها الحقيقى بحث حر نزيه لا يعود الى تخليد سابق أو يدافع عن اتجـــاه دينى أو فكرى محدد ، **وينبغى أن تكون أرض الفلاسفة هى أرض المعانى والتفسير العقلى التاملى فى ظواهر ادراكاتنا الحسية ، وأن تكون مهمة الفلسفة هى الكشف عن العالم وسر العقل** ، على أن تبدأ بوصف مباشر لتجربتنا كما هى ، ودون مراعاة لعملية تكونها النفسية والتفسيرات السببية التى قد يقدمها عنها العالم أو المؤرخ ، ثم تعود بعد ذلك الى العالم المعاشى ، وراء العالم الموضوعى ، ثم تضع تفسيراتها الجديدة لكل مشاكل الوجود الانسانى .. وتسير فى طريقها المرسوم .. فهى بذلك تكون فن حل مشاكل الوجود واكتشاف الحقائق ، أما هدفها الاسمى فهو جعل **« الانسان »** سيد **« الطبيعة »** ومالها .

اعادة الانسان الى نفسه

أما الملاحظات التى يمكن توجيهها بالنسبة لفلسفة ميرلوبونتى ـ والفلسفات الوجودية بوجه عام ، **فهى أنها** تنزع نزعة فردية متطرفة ، فتجعل من الانسان مركزا للكون ومحورا لكل تفكير فلسفى ، متناسية أو متغافلة عن قوة الجماعة أو المجتمع ، بل أنها تعد أحيانا ثورة احتجاج من الفرد على جمعية المجتمع ، وهذه مغالاة ، فالفرد موجود والجماعة موجودة وصلاح النوع فى الانتفاع بمزايا الفرد ، كما أن من صلاح الفرد الاعتراف لغرائزه النوعية وعلاقاته الانسانية التى لا فكاك منها ..

وميرلوبونتى يعتمد على الادراك الحسى فى كل تفكير للانسان ، ونعتقد أن الادراك الحسى اذا كان وسـيلة لا مفر منها للانسان فى التعرف على عالمه المعاشى ، فلا سبيل الى ذلك ولا اكتمال له الا بوجود **« العقل »** أو **« التفكير الخالص »** الذى يحرر الانسان أحيانا من ربقة الجسد ودائرة الحس ، ويجعله يدرك وجوده فى امتلائه وجبروته ، وقد اثبت العلم أن هناك مدركات لا يستطيع **« الحس »** وحده التوصل اليها ، ولابد لها لكى تدرك ادراكا صحيحا من وسائل تعلو الحس ، هذه الوسائل تتمثل فى **« العقل »** و **« والتفكير المثالى الخالص »** .

والملاحظة الثالثة أن الوجودية عند ميرلوبونتى شديدة الثقة فى الانسان ، معتقـدة أنه على كل شىء قدير ، وتتناسى أن الناس وان كانوا سواسية فى الوجود الا انهم لا يتساوون فى المستوى الفكرى أو العقلى ، وان الكثيرين منهم لا يستطيعون ان يتواءموا مع أنفسهم ولا مع الآخرين ، ولا يمكنهم تقرير شىء أو اتخاذ موقف يلتزمون به ، وغاية ما تقول به أن الانسان وجد وعليه أن يقرر مصيره فى حرية تامة ومسئولية غير مجبرة ، وليس كل الناس ممن يحتملون أو يتحملون هذه الأمور ، فماذا يقول بونتى ـ والوجوديون ـ بالنسبة لهم ؟ ..

والملاحظة الأخيرة أن ميرلوبونتى حين يأخذ بمعطيات الشعور المباشر والادراك الحسى الظاهرياتى يحاول القيام بمحاولات ديالكتيكية من أجل حل المتناقضات وهذا تذبذب فى موقف لا يحتمل الا حلا واحدا وهو الثبات على مبدأ واحد أو محاولة التوفيق بين اختلافات الفكر .

ومع كل هذا فقد نجح ميرلوبونتى فى تأكيد فلسفته وفى ايصال مفهومات واضحة ذكية عنها : **تأكيد الذات الانسانية واعادة الانسان الى نفسه** ـ بعد عن اللاهوت والفكر الميتافيزيقى التقليدى ـ تصوير الصلة العميقة بين الانسان والكون ـ جعل الحرية مرادفة للوجود الانسانى ـ رؤية الوجود من خلال ادراك حسى سليم ـ مواجهة الواقع فى شـجاعة واصرار ـ تأكيد ان الوجود والتفلسف شىء واحد ، وأن معنى التفلسف لا ينفصل عن الوجود ، لان الفلسفة هى تساؤل عن معنى الوجود ، والوجود هو الفكر ، والفلسفة ملازمة للحياة ، معانقة للوجود ..

وتلك هى أصالة فلسفة ميرلوبونتى وادراكه السليم لمعنى الوجود الانسانى ..

محمد كمال الدين